الشبهة الثلاثون

جامعو السنة كتبوها مكرهين؟!

عنوان ضخم، ووصف مفزع، فإذا فتشت وراءه لم تجد لهذا «القول» أبا ولا أما. وهذا يؤكد أن منكرى السنة يتهافتون - دائما - وراء تصيد الشبهات لإنكار شطر الإيمان.

وفى هذه الشبهة يزعمون أن جامعى السنة لم يكتبوها مختارين، بل كتبوها مكرهين، وأن الأمراء هم الذين أكرهوهم على كتابتها، ولولا إكراه الأمراء ما كتبوها، وما كنت تسمع عن رجل اسمه البخارى، أو مسلم أو غيرهما؟!

ويستندون فى هذه التهمة «الضخمة» على كلام كتبه المستشرق اليهودى الأصل (جولدزيهر) عن الإمام الزهرى نقله محرَّفا ولو كان نقله «صوابا» ما وجد فيه منكرو السنة الآن أو شياطين الإنس مغمزا فى حديث رسول الله ﷺ.

وها نحن أولا نكشف باطلهم بحق الله، فإذا هو زاهق.

تفنيد هذه الشبهة ونقضها:

لم يكن تدوين المعارف والعلوم منتشرا فى صدر الإسلام بل كانوا يعتمدون على الحفظ، وقوة الذاكرة. وقد كان هذا ملاحظا فى كل العلوم العربية والشرعية، وليس مقصورا على علم الحديث وحده، لأن التدوين بدأ وئيداً فى أواخر القرن الثانى الهجرى. ثم فشا أمره فى القرنين الثالث والرابع، وبلغ ذروته فى الرابع كما هو معروف. والقرنان الثالث والرابع هما العصر الذهبى فى التأليف والتدوين العربى الإسلامى.

الواقعة قبل التحريف:

جاء فى طبقات ابن سعد وتاريخ ابن عساكر أن الإمام الزهرى كان يمتنع عن

كتابة الأحاديث الشريفة للناس، ويكتفى بإسماعهم الحديث لئلا يتكلوا على الكتابة ويهملون الحفظ، وفى عهد هشام بن عبد الملك أشار على الزهرى أن يكتب لولده – ولد هشام – أربعمائة حديث ليحفظها، فامتنع الزهرى، لكن هشاما ألح عليه حتى وافق الزهرى. ولما كتب الأحاديث الأربعمائة خرج فقال للناس، الذين كانوا يطلبون أن يكتب لهم الأحاديث فيمتنع، قال لهم بصوت عال:

«أيها الناس: إنَّا كنا منعناكم أمراً – أى كتابة الأحاديث لهم – وقد بذلناه الآن لهؤلاء. وأن هؤلاء الأمراء أكرهونا على كتابة الأحاديث، فتعالوا حتى أحدثكم بها، فحدثهم بالأربعمائة حديث».

هذه هى الواقعة بكل ملابساتها، ومما يحمد للزهرى فيها أنه أبرأ ذمته، وسوَّى بين جميع طلاب العلم، وبين ابن الخليفة كما وضح للناس السبب فى كتابته الأحاديث لابن هشام وهو إلحاح هشام عليه كما جاء ذلك واضحا فى كلامه، الذى رواه ابن عساكر وابن سعد، وشاركهما الخطيب فى ذكره.

الواقعة بعد التحريف:

كان جولدزيهر أول من حرَّف عبارة الإمام الزهرى تحريفا خطيراً أفسد المعنى المراد عند الإمام الزهرى.

فقد حرَّف زيهر عبارة الزهرى «أكرهونا على كتابة الأحاديث» إلى قوله: «أكرهونا على كتابة أحاديث»؟!

والفرق بين العبارتين كبير وخطير:

فعبارة الإمام الزهرى معناها أن هشاما أكرهه على كتابة أحاديث رسول الله ﷺ.

ومعنى عبارة زيهر أن هشاما أكره الزهرى على كتابة أحاديث مفتراة لم يقلها النبى ﷺ؟!.

والمقصود من هذا التحريف عند زيهر ومشايعيه أن الزهرى كان أول من تعمد الكذب على رسول الله ثم تتابع جامعو السنة فى «فبركة الأحاديث» دون أن يكون لها من الصحة نصيب؟!

هذه هى الحقيقة، وأنت ترى أن هذه الشبهة لم تقم على أى أساس سوى التحريف المتعمد، ولا عجب، فإن اليهود - ومنهم جولدزيهر - لهم مهارة فى التحريف والخيانة، فقد حرَّفوا التوراة وشوهوا صورة الحق فيها، فما الذى يمنع زيهر من تزوير النصوص الإسلامية تزويراً يحقق بعض أو كل مطامع اليهود فى تشويه الإسلام، أو القضاء عليه؟! وليست مشكلتنا اليوم مع جولدزيهر، فقد هلك هو وهلك معه حقده على الإسلام.

وإنما مشكلتنا مع هؤلاء «الخونة» الذين اتخذوا من سنة رسول الله ﷺ «غرض» يطلقون عليه سهامهم الطائشة بسوء نية، وسوء لسان.

وتراهم لم يقفوا عند المعنى الذى أراده سلفهم «زيهر» بل ضخَّموا هذه «الفرية» وادعوا أن السنة «كلها» كتبت فى «قصور الأمراء» وعلى «أهوائهم» وهى الشبهة التى رصدناها وعرضناها من قبل ثم فندناها ونقضناها بأسلوب علمى موضوعى لا تهافت فيه ولا تحامل والحق لا يحتاج أنصاره فى الدفاع عنه إلى استخدام سلاح الباطل فدعائم انتصار الحق كامنة فى الحق نفسه.

امتناع الزهرى أولاً:

وليس فى امتناع الزهرى عن كتابة الحديث أولاً، ولا فى إعلانه عن كراهيته للكتابة أمام هشام ثانيا، ليس فى هذين ما يمكن أن يكون ترشيحا وتقوية لادعاءات منكرى السنة الآن، ولا لجولد زيهر من قبل.

جولدزيهر يقول إن الإمام الزهرى اعترف بصراحة عن تزويره أحاديث عن رسول الله ﷺ استجابة لرغبة الخليفة هشام بن عبد الملك.

وهذا كله وَهْم مغلوط، ولا يُفهم منه أن موقف الزهرى كان لاعتقاده أن السنة مزورة، لأن هذا الموقف وقف مثله الخليفة الأول أبو بكر الصديق من جمع

القرآن فى مصاحف كما وقفه زيد بن ثابت الأنصارى حين عهد إليه الشيخان أبو بكر وعمر رضى الله عنهما بجمع القرآن، وقال إنه لو كُلِّف بنقل جبل لكان أهون عليه من جمع القرآن.

والأمور العظيمة يخشى الأتقياء وأهل الورع الإقدام عليها تقديراً لها، ورؤية أنفسهم أضأل ما يكونون أمام عظمتها مثل الفتيا، ما أكثر من كان لا يجرؤ عليها من أصحاب رسول الله ﷺ وهم أهل للفتوى والقضاء.

فهل يقول هؤلاء الآبقون إن معارضة أبى بكر رضى الله عنه أولاً فى جمع القرآن فى مصاحف كانت لريب فى نفسه نحو القرآن!، وهل يقولون إن زيد بن ثابت كره أن يقوم بجمع القرآن من صدور الحفاظ، ومن الرقاع لاعتقاده أن القرآن لا يوثق بروايته وحفظه؟!

إنهم لن يستطيعوا – لأسباب كثيرة – أن يقولوا بهذا. ونسالهم – بناء على ما تقدم – ما الفرق بين موقفى أبى بكر وزيد بن ثابت، وبين موقف الزهرى؟! هل عندكم من علم فتخرجوه لنا يا حزب الشيطان؟!.

* * *